

مقومات المرجعية الدينية الجزائرية في فكر الشيخ بن الشيخ

The components of the Algerian religious authority
In the thought of Sheikh Ben Sheikh

أ.د قاسم الشيخ بلحاج *

جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)

b.kacemchukh@univ-alger.dz

تاريخ الارسال: 2025/10/12 تاريخ القبول: 2026/02/07 تاريخ النشر: 2026/03/09

ملخص:

تنبني حياة الإنسان وشعوره بالأمن والاستقرار في وطنه على عدة عوامل هامة يتحقق بها أهداف الحياة ومقاصدها ولعل العامل الديني بأبعاده المتمثلة في العقيدة والشريعة والأخلاق يعد من أهم وأخطر هذه العوامل مما له من علاقة وطيدة ومباشرة بتحقيق الأمن الفكري والهوياتي للفرد والمجتمع؛ هذا الذي اصطلح عليه بالمرجعية الدينية للأوطان.

تطرح هذه الدراسة جهود علم من أعلام الجزائر المعاصرين ألا وهو الفقيه الشيخ بن الشيخ في تحديد مفاهيم المرجعية الدينية وبيان علاقتها بوحدة الأمة، وبيان مقوماتها وإبراز خصائصها، وكيف تعمل على تحقيق الجمع والوفاق بين مكونات المدرسة الفقهية الجزائرية بمختلف اتجاهاتها. وكيف يصب ذلك في خدمة قيم التعايش والمواطنة والأمن الديني للجزائر. وذلك بالتركيز على دراسة كتابه: أصول الجمع وكليات الوفاق بين المذهبين الإباضي والمالكي.

يعد هذا الكتاب الذي هو ثمرة اجتهاد فكري رصين للشيخ بن الشيخ كشف فيه على سعة اطلاعه العلمي في مجال الفقه والأصول والعقائد، كما كشف فيه عن أفقه الرحب في التفاعل مع قضايا الأمة وانشغالاتها المعاصرة، وعن قدرته لاستيعاب اختلافات الأمة واجتهادات تحت مظلة سماحة الإسلام وعدالته وقيمه الإنسانية النبيلة. وتصل بهذه الرؤية الثاقبة لطرح هذا الموضوع في أبعاده الإنسانية الرحبة.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الوطن، أعلام الجزائر، وحدة الأمة، المرجعية

Abstract :

Human life and a person's sense of security and stability in their homeland are built upon several important factors through which life's goals and objectives are achieved. Perhaps the most important and critical of these factors is the religious sphere, encompassing faith, law, and ethics, due to its close and direct connection to achieving intellectual and identity security for both the individual and society; this is what is termed the religious framework of nations.

This study examines the efforts of a prominent contemporary Algerian scholar, Sheikh Ben Sheikh, in defining the concepts of religious authority and its relationship to national unity. It explores the foundations and characteristics of this authority, and how it works to achieve harmony and consensus among the various schools of Algerian jurisprudence. The study also examines how this contributes to the values of coexistence, citizenship, and religious security in Algeria.

This book, the fruit of Sheikh Bin Sheikh's profound intellectual endeavor, reveals the breadth of his scholarly knowledge in jurisprudence, its principles, and theology. It also demonstrates his broad perspective in engaging with the contemporary issues and concerns of the Muslim community, and his ability to encompass the diversity of opinions and interpretations within the framework of Islamic tolerance. This insightful vision allows him to present the subject in its expansive human dimensions.

Keywords: alhuiatu, alwatani, 'aelam aljazayir, wahdat al'umati, almarjieia

مقدمة:

يعد استقرار الإنسان في وطنه وشعوره بالانتماء لأمته وما تحمله من قيم ومبادئ وأخلاق، واعتزازه بما لديها من حضارة وتاريخ مكسبا هاما ومطلبا ملحا لأجل تحقيق الحياة المنشودة في أبعادها الدينية والاجتماعية والاقتصادية للبشر.

ويكتسي العامل الديني في هذه المعادلة الأهمية الكبرى في تحقيق الأمن الفكري والهوياتي للفرد والمجتمع؛ هذا الذي اصطلح عليه بالمرجعية الدينية للأوطان.

تحاول هذه الدراسة أن تكشف عن جهود وأفكار علم من أعلام الجزائر المعاصرين ألا وهو الشيخ بن الشيخ. حيث تطرح إشكالية تحديد مفاهيم المرجعية الدينية وبيان علاقتها بوحدة الأمة، وبيان مقوماتها وإبراز خصائصها، وكيف تعمل على تحقيق الجمع والوفاق بين مكونات المدرسة الفقهية الجزائرية بمختلف اتجاهاتها. وكيف يصب ذلك في خدمة قيم التعايش والمواطنة والأمن الديني للجزائر. وذلك بالتركيز على دراسة كتابه: أصول الجمع وكميات الوفاق بين المذهبين الإباضي والمالكي.

هذا الكتاب الذي يعد ثمرة اجتهاد فكري رصين للشيخ بن الشيخ كشف فيه على سعة اطلاعه العلمي في مجال الفقه والأصول والعقائد، كما كشف فيه عن أفقه الرحب في التفاعل مع قضايا الأمة وانشغالاتها المعاصرة، وعن قدرته لاستيعاب اختلافات الأمة واجتهادات تحت مظلة سماحة الإسلام وعدالته وقيمه الإنسانية النبيلة.

لمعالجة هذا الموضوع سوف تتطرق هذه الدراسة لتناول العناصر الآتية:

1. ترجمة مختصرة للشيخ بن الشيخ
2. دراسة وصفية لكتاب: أصول الجمع وكميات الوفاق بين المذهبين الإباضي والمالكي
3. مفاهيم المرجعية الدينية:
4. المرجعية الدينية وهوية الأوطان:
5. مفاهيم وحدة الأمة والمرجعية الدينية عند الشيخ بن الشيخ:
6. نظرية وحدة الأمة في فكر الشيخ بن الشيخ:
7. الحالة الجزائرية لوحدة الأمة والمرجعية الدينية:

خاتمة.

1. ترجمة مختصرة للشيخ بن الشيخ:

هو أحد علماء الجزائر وأعلامها العاملين المصلحين، وأحد الدعاة المرابطين على عتبات المساجد وفوق منابرها تعليماً وإرشاداً وتربية وتوعية، وأحد الأساتذة الأكفاء الذين أمضوا حياتهم متصدين لحلق العلم وقاعات التدريس.

اسمه محمد بن بابه ولقبه العائلي الشيخ بالحاج، فهو ينحدر من عائلة عريقة عرفت بالعلم والتقوى في بلده، وقد اشتهر باسم "الشيخ ابن الشيخ" وهو من مواليد بلدة القرارة بولاية غرداية بجنوب الجزائر سنة 1350هـ/ 1931م.

التحق بالتعليم في المدارس الابتدائية بمسقط رأسه، وحفظ القرآن الكريم واستظهره سنة 1946م ثم أنتقل للدراسة في معهد الحياة سنة 1947م للتعليم الثانوي، وتخرج فيه سنة 1953م وقد عرف عنه الجد في تحصيل العلم كما أوتي مواهب والنبوغ والذكاء والتفوق.

واصل تكوينه العلمي بجامع الزيتونة بتونس حيث جلس متعلماً بين يدي الكثير من مشايخها وعلمائها الذين على رأسهم الشيخ الطاهر بن عاشور وابنه الشيخ الفاضل بن عاشور. وقد تخرج فيها بشهادة العالمية في الشريعة وأخرى في الحقوق، ومكث في تونس متفرغاً للتحصيل العلمي مدة سبع سنوات متواصلة إلى أن نالت الجزائر استقلالها سنة 1962م حيث عاد إلى أرض الوطن.

كما كان له نشاط كثيف ضمن طلبة البعثة البيوضية بتونس، حيث تولى رئاستها لعدة سنوات.

وكان له نشاط آخر مواز ضمن خلايا جبهة التحرير الوطني بتونس يتولى مهام الكتابة والتفتيش في صفوف مناضليها.

بعد عودته إلى أرض الوطن استقر ببلده القرارة والتحق بمعهد الحياة أستاذاً للعلوم الشرعية والفلسفة والتاريخ الإسلامي والإشراف على بعض الأعمال الإدارية والبيداغوجية، ومكث في مهمته النبيلة في تكوين الأجيال طوال حياته إلى أن أقعده المرض سنة 2006م، وتخرج على يديه أعداد هائلة من الطلبة وهم يشهدون له بكفاءته وانضباطه وإخلاصه وسعة علمه.

عين عضوا في حلقة العزابة بالقرارة سنة 1971 وتولى مسؤولية الوعظ والإرشاد والإفتاء، ثم عين عضوا في مجلس عبي سعيد . الهيئة الدينية العليا لقرى وادي مزاب، كما عين عضوا في مجلس بابعبد الرحمن الكرتي . المجلس الأعلى لأعيان بني مزاب. كما عين عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر.

أسس في بيته ببلدته القرارة ندوة علمية فقهية يحضرها طلبته وأهل العلم تنتظم كل يوم سبت لدراسة المسائل الفقهية ومناقشتها.

كان له نشاط مسجدي حافل وثرى بسلاسل الدروس التي كان يلقيها لعامة الناس في العلوم الشرعية المختلفة عقيدة وفقها وتفسيرا وتاريخا وأصولا وسنة وسيرة وغيرها من العلوم والمواضيع.

عرف بنشاطه الدؤوب وبأسفاره المتواصلة لحضور مختلف الأنشطة العلمية والدعوية داخل الوطن وخارجه، من ذلك مشاركاته المتميزة بمداخلات ومحاضرات في ملتقيات الفكر الإسلامي والمجلس الإسلامي الأعلى والندوات العلمية المحلية والوطنية والدولية.

خلف الشيخ تراثا علميا زاخرا ومتنوعا بين المخطوط والمطبوع والرسائل والجوابات عن الأسئلة والفتاوى والبحوث العلمية.

بعد مسيرة حافلة بالنشاط العلمي والدعوي استمرت لأزيد من نصف قرن أقعده المرض سنة 2006م وبقي طريح الفراش إلى أن وافته المنية رحمه الله تعالى يوم الأحد 22 ذو الحجة 1442هـ الموافق لـ: 01 أوت 2021 م. ودفن في مسقط رأسه ببلدة القرارة⁽¹⁾.

(1): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق بين المذهبين الإباضي والمالكي، ص 5-6.

2 . دراسة وصفية لكتاب: أصول الجمع وكليات الوفاق بين المذهبين الإباضي والمالكي:

يحمل الكتاب عنوان: أصول الجمع |وكليات الوفاق بين المذهبين الإباضي والمالكي.

وهو يقع في 232 صفحة من الحجم المتوسط، طبعت طبعته الأولى سنة 1993م، ثم أعادت جمعية التراث طبعه ونشره في طبعة ثانية منقحة سنة 1437هـ . 2016م، وقام بتخريج نصوصه الأستاذ عمر الشيخ أحمد، وقدم الكتاب ابنه الأستاذ عيسى الشيخ بالحاج .

يعد الكتاب محاضرة تقدم بها الشيخ بن الشيخ للمشاركة في ندوة الفقه المالكي التي انعقدت في سنة 1994م بقصر الثقافة تحت إشراف وزارة الشؤون الدينية والأوقاف الجزائرية.

أما عن محتوى الكتاب فقد استفتحته الشيخ بمقدمة سماها توطئة ثم قسمه إلى خمسة فصول.

كان الفصل الأول بعنوان: أصول الوفاق ومسائل الخلاف في الأصول الدينية والعقائدية، وهو بدوره مقسم إلى خمسة مباحث، تناول في المبحث الأول موضوع كمالات الله تعالى لا تتبدل في الدنيا والآخرة، وتناول في المبحث الثاني موضوع مسائل خلافية بين الإباضية والأشاعرة، وتناول في المبحث الثالث موضوع أصول الوفاق وما تولد عنه من جزئيات الخلاف، وتناول في المبحث الرابع موضوع أصل العقيدة والإيمان الصادق العميق، وتناول في المبحث الخامس موضوع أصل الولاية والبراءة.

ثم كان الفصل الثاني بعنوان: أصول الوفاق ومسائل الخلاف في الأصول الفقهية.

تعرض فيه إلى العديد من المسائل العلمية والقضايا الخلافية الاجتهادية في الأمة من أهمها: موضوع الوحي المتلو وهو القرآن وموضوع الوحي غير المتلو وهو السنة بأنواعها القولية والفعلية والتقريرية، ثم تحدث عن موضوع القنوت في الصلاة، ثم موضوع رفع الأيدي مع تكبيرة الإحرام.

ثم تحدث عن مفاهيم الإجماع والقياس والاجتهاد والاستصحاب والمصالح المرسلة والقواعد الفقهية.

ثم كان الفصل الثالث بعنوان: الأصول السياسية الشرعية للإباضية

تناول فيه موضوع وجوب إقامة سلطة حاکمة شرعية، ثم موضوع عدم اختصاص السلطة بفئة أو عرق أو اسم، ثم موضوع مؤهلات وصفات الحاكم، ثم موضوع السلطة لا تورث، ثم موضوع ضوابط الخروج على الحاكم.

ثم كان الفصل الرابع بعنوان: الأحكام العملية في المسائل الفرعية في العبادات.

تناول فيه نماذج من المسائل الخلافية في العبادات بين المذاهب الإسلامية عموماً وبين المذهب المالكي والإباضي خصوصاً مثل الطهارة ومواقيت الصلاة وصلاة السفر وبعض مسائل الزكاة والصوم والحج.

ثم كان الفصل الخامس بعنوان: المسائل أو الفروع الخلافية في أحكام المعاملات.

تناول فيه نماذج خلافية في أحكام المعاملات البدنية مثل الزواج والرضاع والحضانة، ونماذج من المسائل الخلافية في أحكام المعاملات المالية مثل القرض والربا واستغلال الأراضي الفلاحية، ونماذج من المعاملات القضائية مثل أعطيات الحكام وحرمة أموات المسلمين.

ثم انتهى الكتاب بخاتمة، ثم شهادات لبعض علماء الجزائر الحاضرين لندوة الفقه المالكي حول أهمية المحاضرة التي ألقاها الشيخ بن الشيخ⁽²⁾.

هذا أهم ما احتوى عليه الكتاب من مسائل علمية هامة وقضايا اجتهادية معاصرة.

إن الناظر في هذه الكتاب الهام والثري، وإن المتتبع لما احتوى عليه من أفكار ومسائل علمية كثيرة في قضايا الشرع المختلفة عقيدة وشرعية وأخلاقاً وسياسة شرعية وتاريخاً إسلامياً وجزائرياً يخرج بقناعة واضحة أنه يقف أمام شخصية علمية موسوعية وقامة جزائرية متبحرة في علوم الشريعة والعلوم المحيطة بها من تاريخ وفلسفة وقانون، جمعت بين المنقول والمعقول من الفنون العلمية، كما أنه يقف أمام شخصية علمية ذات مؤهلات عالية ومواصفات متميزة ترقى به ليكون علماً من أعلام الجزائر المعاصرة وعالماً من علماء أمة الإسلام.

⁽²⁾ محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق، يراجع فهرس الكتاب: ص 227-231.

لعل أهمها تلك الرؤية المستوعبة لمذاهب الأمة وأطرافها، والمدركة لتحدياتها المعاصرة، والحاذقة بأهمية الوحدة ومخاطر فرقتها، والمتمسكة بالمرجعية الوطنية الجزائرية المتنوعة تنوع الثراء والعطاء، والمدركة لأهميتها في إرساء دعائم الوطن والمجتمع والبلد الواحد على أساس الدين الإسلامي في فهمه الوسطي المعتدل النابع من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

كل هذه الصفات وهذه الخصال تقرأ في ثنايا هذا الكتاب وتستخرج من بين فقراته وسطوره، وهي تجتمع في شخص شيخنا المحتفى به الشيخ بن الشيخ رحمه الله تعالى.

3. مفاهيم المرجعية الدينية:

جدير بنا ونحن نتناول المرجعية الدينية أن نستهل بحثنا بضبط المفاهيم والمصطلحات ذات الصلة والعلاقة بالموضوع المدروس لنبني عليها ما سيعرض لاحقا من أفكار ورؤى للشيخ بن الشيخ في هذا المجال.

أ. تعريف المرجعية الدينية:

المرجعية لغة: هي اسم مفرد مؤنث منسوب إلى مَرَجِع وهو المعاد إليه لغرض ما.

يقال للكتاب مرجع لأنه يعاد إليه في معرفة مسائل العلم والمعرفة⁽³⁾.

ب. معنى المرجعية في القرآن الكريم:

إذا عدنا للقرآن الكريم لا نجد فيه استعمالا للفظ المرجعية بهذه الصيغة اللغوية، وإنما ورد فيه استعمال لفظ: مرجع، وذلك في ستة عشر موضعا⁽⁴⁾.

منها قوله تعالى: "إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (المائدة، 105).

منها قوله تعالى: "إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (هود: 04).

ومنها قوله تعالى: "كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام: 108).

تفيد هذه الآيات أن المرجعية هي العودة إلى الله تعالى بعد موت الإنسان ثم بعثه.

(3) محمد ابن منظور: لسان العرب، ص 214

(4): محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، ص 315

ج. المرجعية اصطلاحا:

ينبغي الإشارة إلى أن مصطلح المرجعية حديث النشأة والاستعمال فلا نجد له ذكرا صريحا وتداولوا واضحا في كتب العلماء المتقدمين، وإنما ظهر وشاع استعماله مؤخرا من جهات علمية وأخرى إعلامية متعددة للدلالة على معنى المرجعية في بعدها الديني والفقهني للأوطان والمذاهب والأديان. وهي تفيد ما يلي:

المرجعية: هي كل هيئة أو جهة أو سلطة معنوية أو شخص عالم، يعاد إليها وإليه لمعرفة أو استشارة أو توجيه أو رجاء منفعة أو مصلحة⁽⁵⁾.

عرفت مذاهب الشيعة تداول هذا المصطلح ووظفته في أدبياتها ورسائلها مصنفاتها العلمية للدلالة على أيمتها المجتهدين المعصومين بحسب معتقداتهم⁽⁶⁾ وهم يقصدون بها عنيين:

المعنى الأول:

مرجعية الفكرة: المتمثلة في الاختيارات الفقهية أو العقائدية أو السلوكية.

المعنى الثاني:

مرجعية الأفراد: المتمثلة في الفقهاء والعلماء الذين يُرجع إليهم في معرفة أحكام الشرع وفهمها وتفسيرها وفق المذهب المختار.

بناء على ما مضى نستطيع أن نضع عدة تعريفات متقاربة للمرجعية الدينية فنقول:

المرجعية الدينية: هي الأصول الشرعية المختارة في فهم الدين وتطبيقه والهيئات العلمية المخبرة بأحكامها.

المرجعية الدينية: هي الأصول والمبادئ الشرعية المختارة في فهم الدين وتطبيقه والهيئات العلمية والعلماء المخبرين الممثلين لها.

(5): أحمد جبالله: المرجعية الدينية الإسلامية، المحددات، عوامل التشكل، الإشكاليات، موقع مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، 2020م.

(6): إدريس بن مصطفى: المرجعية الدينية في الجزائر: الأسس والمرتكزات: مقال منشور ضمن مجلة متون للدراسات، جامعة

المرجعية الدينية: هي الأصول الشرعية المعتمدة في وطن ما لفهم الدين وتطبيقاته، والهيئات العلمية والعلماء الممثلين لها⁽⁷⁾.

. يقصد بالأصول: مجموعة المبادئ والأسس والقواعد الشرعية لفهم الإسلام على مذهب من مذاهبه المعتمدة.

. يقصد بالشرعية: الاستناد على الدين الإسلامي ومصادره المتمثلة في القرآن والسنة والإجماع وغيرها من الأدلة الشرعية.

. يقصد بالمختارة: ما ارتضاه بلد من البلدان أو شعب من الشعوب من مذاهب وطرائق معتبرة في فهم الإسلام وتعبد الله تعالى بها، مما توارثوها عبر أجيال متعاقبة.

د. التأسيس الشرعي للمرجعية الدينية:

سبق القول إن مصطلح المرجعية لم يرد ذكر واستعماله بهذا اللفظ في القرآن الكريم، إلا أن مفهومه موجود ومشار إليه ومتضمن في مواضع كثيرة منه؛ مما يمكن أن يعد موضوعاً قرآنياً للدراسة ضمن مناهج التفسير الموضوعي وليس مصطلحاً قرآنياً فقط.

وقد استعمل القرآن الكريم عدة ألفاظ ومصطلحات للدلالة على المرجعية الدينية، للأفراد وللهيئات؛ لعل أهمها مصطلح: أولي الأمر، ومصطلح أهل الذكر.

فقد قال الله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (النساء، الآية: 83)

وقال تعالى: "أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (النساء، الآية: 59)

وقال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (الأنبياء، الآية: 7)

(7): إدريس بن مصطفى: المرجعية الدينية في الجزائر: الأسس والمرتكزات: مقال منشور ضمن مجلة متون للدراسات، جامعة

وتعريف أولوا الأمر هم العلماء والأمراء والحكماء، وتعريف أهل الذكر هم العلماء⁽⁸⁾.

فأهل الذكر وأولوا الأمر: هم علماء الأمة الذين تفرغوا لدراسة العلوم الشرعية حتى تمكنوا فيها وأتقنوا فنونها وأحكامها وتطبيقاتها وإنزالها على حياة الناس واقعهم وقضاياهم بحسب أوضاعهم وظروفهم، وهم الذين ورد في حقهم قول الله تعالى: "فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ" سورة التوبة، الآية: 122

يعتبر وجود هؤلاء العلماء في قلب الأمة ومعتزك الحياة ضرورة شرعية ملحة لا يمكن الانفكاك عنها، حتى يتحقق صلاح الأفراد وحصانة المجتمع، وإلا تعرضت الأمة لفساد أحوالها وتكالب الأعداء عليها.

بعد وفاة النبي ﷺ أدرك الصحابة الكرام رضي الله عنهم أهمية وجود مرجعية الأشخاص ومرجعية الأفكار في أمة الإسلام فجمعوا خيارهم في العلم والإمارة والقُدوة والرشد والحكمة فأسسوا ما يعرف بهيئة أهل الحل والعقد، حيث يجتمع هؤلاء الذين يعدون نخبة علماء الأمة وأعيانها ووجهائها تحت مظلة هذه الهيئة كلما اقتضت الضرورة واستجدت المستجدات وطرأت النوازل لدراسة شؤون الأمة المصيرية والفصل فيها بما يخدم منافع الناس ويحفظ مصالحهم ويبعد المفساد والشرور عنهم.

كانت هيئة أهل الحل والعقد في الأمة تجمع بين الشأن الديني والشأن السياسي لاعتبارات ذلك الزمان، ثم انفصلت الهيئتان عن بعضهما البعض بعد ذلك، فأصبح للشأن السياسي هيئاته ومؤسساته ورجاله، وللشأن الديني هيئاته ومؤسساته ورجاله.

وهذا الذي يسمى اليوم بالمرجعية الدينية للأوطان، فهي تعد مرجعا موحدًا وملادًا آمنًا وحصنًا صالحًا لكل أبناء وطن أو شعب أو مجتمع، بما يحمل في طياته من مشارب واتجاهات فكرية وثقافية وسياسية مختلفة.

(8): أحمد جاب الله: المرجعية الدينية الإسلامية، المحددات، عوامل التشكل، الإشكاليات، موقع مركز دراسات التشريع

هـ. أهمية المرجعية الدينية وأهدافها:

ترتبط وحدة الأمة ووحدة الوطن واستقرار الناس وشعورهم بالأمن الديني والحضن الأخلاقي والانسجام المجتمعي بوجود مرجعية دينية واحدة موحدة تجتمع فيها الكلمة وتتوحد فيها الرؤى العامة للأمة والوطن⁽⁹⁾، وفي ذلك تتجلى أهميتها القصوى التي يمكن أن نعددها أهمها في النقاط الآتية:

. وجود مرجعية دينية جامعة لعلماء شريعة أكفاء ودعاة وفقهاء مؤهلين، يمنحهم القدرة على الاجتهاد الجماعي لمراعاة مصالح الناس لتحقيقها ومعرفة المفاصل لتجنبها، فتكون المرجعية بذلك صمام أمان الأمة والمجتمع والوطن في جمع كلمتها وتوحيد صفها.

. المرجعية الدينية للبلد تكون هي المسؤولة على مراعاة أعراف الناس وصون خصوصياتهم الاجتماعية والثقافية ومعرفة أوضاعهم الاقتصادية التي تتأسس عليها الفتوى والدعوة والإرشاد.

. المرجعية الدينية للبلد فيها التمثيل لكل أطرافه ومذاهبه ومشاربه الفكرية حينما تتعدد وبذلك تجسد معنى الوحدة وتحافظ على لحمة المجتمع.

. المرجعية الدينية للبلد يرجع إليها في فض الخصومات الكبيرة وفي حسم المنازعات الشديدة في مجالات الحياة المختلفة التي قد تهدد كيان الوطن أو أحد مكوناته.

. المرجعية الدينية للبلد تعد إحدى دعائم هوية الشعوب وركائزها لأنها تمثل أهم مكوناتها ألا وهو العنصر الديني.

4. المرجعية الدينية وهوية الأوطان:

توجد علاقة وطيدة ومباشرة بين المرجعيات الدينية للشعوب والمجتمعات والأوطان وبين عناصر هويتها التي تعد هي الأسس والدعائم القاعدية التي تمثل كينونتها وتضبط شخصيتها⁽¹⁰⁾، كما أن هذه الثوابت تكون عادة مستمدة من تفاعل حركية الإنسان مع التاريخ ومع الجغرافيا فوق بقعة من بقاع الأرض الذي هو الوطن⁽¹¹⁾.

(9): قاسم الشيخ بالحاج: الأمن الثقافي للأوطان والتحديات، المعاصرة، ص 11-23

(10): عبد الإله بلقزيز: مقال بعنوان: في مفهوم الأمن الثقافي، منشور ضمن موقع: مركز الخليج للدراسات، سنة 2021

(11): عبد الكريم بكار: من أجل انطلاق حضارية شاملة، ص 113، 134.

وبالنسبة للجزائر باعتبارنا جزءا من أمة الإسلام فإن مرتكزات هويتها تتمثل في العناصر الآتية:

. الدين الإسلامي الذي يمثل المرجعية الدينية، ذلك بالمعنى الشامل له، فهو مشروع مجتمع ذو بعد إيماني عقدي، وبعد شرائعي عملي، وبعد أخلاقي سلوكي

. الوطن: وهو هذه الجغرافيا المتمثلة في الجزائر مثلا، التي عاش فوقها هذا الإنسان وتفاعل مع طبيعتها ومناخها وبيئتها وخبرتها وتجربتها في الوجود فصنع مظاهر الحياة فيها.

. اللغة العربية: التي تعد مقوما أساسيا لهذه الأمة في كون لسان حضارتها عربيا، امتزجت فيها اللغة بكل مناحي الحياة وأنتجت مظاهرها بالارتباط بهذا اللسان.

. اللغة الأمازيغية: التي تعد بدورها مقوما أساسيا لهذا الشعب في شمال إفريقيا وفي الجزائر، فهو لسان حضارتها وحياتها اليومية، وقد امتزجت هذه اللغة بجوانب الحياة واصطبغت بها أيضا.

. الحضارة بالمعنى الواسع التي تعني كل ما أنتجه هذا الإنسان الذي يعيش فوق هذه الأرض وهذا الوطن من فنون وعلوم وتراث وثقافات وأعراف وتقاليد.

هذه أبرز دعائم هذه الأمة وركائزها في تشكيل هويتها وشخصيتها، وكيونتها التي تعيش بها وتحيا لأجلها في مجالات الحياة المختلفة.

كما تتشكل الحضارة الإنسانية التي تميز الشعوب عن بعضها البعض من تراكم هذه الأبعاد من الهوية ومن تفاعلها عبر حقب التاريخ مع الجغرافيا مع حركية الإنسان فوق هذه الأوطان⁽¹²⁾.

وضع لنا فقهاء الحضارة تعريفات متعددة لها، بحسب مرجعياتهم الفكرية وخلفياتهم المعرفية، وكان مرتبط فرسها يدور حول ذلك الإنتاج البشري من فنون وعلوم وآداب وفلسفة وتشريع وخبرة بشرية مفيدة صالحة نافعة.

(12):مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ص71. 75

من فقهاء الحضارة هؤلاء نجد الأستاذ المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي قال عن الحضارة بأنها "نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ، ومن هذا المنطلق فإن معنى التحضر هو أن يتعلم الإنسان كيف يعيش في جماعة، وأن يدرك شبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية، كما أنها جملة العوامل المعنوية والمادية التي تنتج لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره".⁽¹³⁾

ومن تمام ذلك يرى المفكر مالك بن نبي أن "قيام أي حضارة لا يكون إلا بتوفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه"⁽¹⁴⁾.

مما سبق عرضه نلاحظ بجلاء ووضوح ذلك التماهي الكبير والترابط الوثيق والتفاعل العميق بين مفاهيم المرجعية الدينية ومكونات الهوية الوطنية التي تعني كينونة الإنسان وجوهر وجوده ومركز وحدته ومستقر مجتمعه وازدهار حياته، لترسم لنا الحضارة في أوجهها المختلفة⁽¹⁵⁾.

5. مفاهيم وحدة الأمة والمرجعية الدينية عند الشيخ بن الشيخ:

إن المطلع على كتاب الشيخ بن الشيخ أصول الجمع وكميات الوفاق يلحظ بوضوح ذلك الحرص الكبير من الشيخ على تأكيد مفهوم وحدة المسلمين ومفهوم المرجعية الدينية الوطنية باعتبارها مقومات بناء الأوطان وتأسيس المجتمعات المتحضرة الصالحة فيها، وذلك من خلال استشهاده بالآيات القرآنية الدالة على الوحدة مثل قول الله تعالى: "إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ" (الأنبياء، الآية: 92)، وقوله تعالى: "وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ" (المؤمنون، الآية: 52)⁽¹⁶⁾.

(13): مالك بن نبي: شروط النهضة، ص 75-105

(14): قاسم الشيخ بلحاج: نظرية الحضارة عند المفكر مالك بن نبي، ص 39

(15): قاسم الشيخ بلحاج: الأمن الثقافي للأوطان والتحديات، المعاصرة، ص 32-40

(16): محمد الشيخ بلحاج: أصول الجمع وكميات الوفاق، ص 18.

وكذلك من خلال عرضه للنماذج التاريخية والصور الواقعية للتعايش في الجزائر بين أتباع المذهبين المالكي والإباضي، وبخاصة في صحراء الجزائر بوادي مزاب حيث يعيش الناس جنباً إلى جنب من أتباع المذهبين في المدن والقرى ويتبادلون كل مصالح الحياة فيما بينهم منذ قرون عديدة في توافق وانسجام كبيرين.

كما يستعرض الشيخ جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في جمع كلمة علماء الجزائر من مختلف مشاربهم ومذاهبهم تحت مظلة واحدة هي الجزائر المسلمة في مرجعيتها وهويتها ووطنها ولغتها.

كما نجده في كتابه تعبيراً عن هذا الانشغال الذي يحمل الشيخ همه في عقله وثقله في قلبه يوجه عتاباً لطيفاً ولوماً مؤدباً للحاضرين في ندوة الفقه المالكي بسبب غفلتهم عن تناول المذهب الإباضي في بحوثهم والإشارة إليه في محاضراتهم ومداخلاتهم التي امتدت لثلاثة أيام، إلا ما كان منه عرضاً أو نادراً في استثناءات قليلة من بعض الحضور. بيد أن الندوة ندوة فقهية وهي منعقدة في أرض الجزائر التي يوجد فيها منذ دخول الإسلام إليها مذهبان أصيلان هما المذهب المالكي والمذهب الإباضي متعايشان جنباً إلى جنب. وفي مقابل ذلك شهدت الندوة تناولاً مستفيضاً لبقية مذاهب أهل السنة من شوافع وأحناف وحنابلة في دراسات مقارنة مع المذهب المالكي.

يقول الشيخ بن الشيخ في هذا الصدد: "أيها الإخوة المؤمنون أستسمح سادتي المشايخ الأجلاء والأساتذة المحاضرين المعقبين أن أهمس في أذهنهم همسة خفيفة لطيفة: إنه ليؤسفني أن تنقضي ثلاثة أيام كاملة، عامرة بالدراسات والتعقيبات والتدخلات ولا يذكر فيها المذهب الإباضي كمذهب عاش وانتشر ومازال عائشاً ومزدهراً كأحسن عصور ازدهاره عبر عصور تاريخه بالجزائر، ومتكاملاً مع المذهب المالكي ومتسامحاً معه".⁽¹⁷⁾

وقد اعتبر الشيخ ذلك من باب الغفلة التي لا يمكن أن تكون ومن باب التهميش الذي لا يمكن أن يقبل؛ باعتبار تلك الأواصر التي تجمع المذهبين في الجزائر منذ دخول الإسلام إليه، ثم ذكر الحاضرين بحق الجوار وحق الوطن المشترك وحق وحدة الأمة ثم قال إن

(17): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق، ص 18.

انتصار الجزائر في الثورة التحريرية المباركة إنما كان بفضل الله تعالى ثم بفضل وحدة صف الشعب الجزائري⁽¹⁸⁾.

6. نظرية وحدة الأمة في فكر الشيخ بن الشيخ:

استعرض الشيخ بن الشيخ في كتابه أصول الجمع وكمليات الوفاق فكرا نيرا وكلاما عميقا وخطابا مؤصلا يمكن أن يعد نظرية متكاملة الأركان في مفهوم وحدة الأمة وجمع كلمتها وتحديد مرتكزاتها تضاف إلى نظريات علماء الإسلام الذين اجتهدوا في رسم معالم هذه الوحدة⁽¹⁹⁾، وهذه أهم ملامحها معالمها:

أ. وحدة الأمة واجب شرعي:

ينطلق الشيخ بن الشيخ في بسط هذا الموضوع باعتبار وحدة الأمة واجبا شرعيا ومبدأ قرآنيا ومطلبا حضاريا وأمرا واقعيا يفرض نفسه ولا مفر منه ولا يمكن للمسلمين الاستغناء عنه أو الغفلة عليه أو التقصير في السعي لتحقيقه، مع الاعتراف بوجود عقبات كأداء في طريقه تحول دون الوصول إلى الهدف المنشود فيه. بسبب عوامل الحياة ونوازلها وتقلباتها وتدافعاتها المختلفة، والتي منشؤها مشاكل الأمة الداخلية، وتربصات أعدائها الخارجية.

يقول الشيخ بن الشيخ في هذا الشأن: "لو أنصفنا أنفسنا معشر المسلمين وأنصفنا التاريخ من أنفسنا. بعيدين كل البعد عن كل رواشب كيد الكائدين الماكرين بالإسلام والمسلمين لوجدنا أنفسنا حقا أمة واحدة كما قال الله تعالى: "إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ" (الأنبياء، الآية: 92)، ثم قالها في حق هذه الأمة خاصة: "وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ" (المومنون، الآية: 52)"⁽²⁰⁾

كأن الشيخ أراد أن يقول إن على الأمة أن تتحمل تبعات الوحدة وأثقالها وعليها أن تشتغل باستمرار لمعالجة قضاياها وشؤونها وصعوباتها ولا تستسلم أبدا أمام معضلاتها أو ترضى بالفرقة والقسمة بدلا عنها.

(18): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكمليات الوفاق، ص 18.

(19): يراجع في ذلك: غازي التوبة: الفكر الإسلامي المعاصر.. عبد الكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة.. عبد الكريم بكار: نحو فهم أعمق للعالم الإسلامي،

(20): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكمليات الوفاق، ص 24

ب. جوامع وحدة الأمة:

بعد أن بين الشيخ وجوب سعي الأمة نحو تحقيق وحدتها حدد لنا جوامع كبرى بها تبنى هذه الوحدة ويعلو بنيانها ويحافظ على حيائها، وهي متمثل فيما يلي:

الجامع الأول: أصول الدين وكمليات الاعتقاد:

يرى الشيخ بن الشيخ أن الأساس الأعظم والمظلة الكبرى لوحدة الأمة التي يجتمع تحت سقفها مختلف أطيافها ومذاهبها وتوجهاتها إنما هو كلمة التوحيد كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وذلك هو الأساس العقدي والحبل المتين والصور العظيم المتمثل في الوجدانية والعبودية والربوبية.

يقول الشيخ بن الشيخ في هذا الأمر: "كيف لا وقد جمعنا أوسع مظلة يستظل بها عباد الله يوم القيامة . يوم لا ظل إلا ظله . إنما مظلة أفضل كلمة قالها رسولنا ﷺ وقالها الأنبياء والمرسلون من قبله... إنها كلمة لا إله إلا الله وفي ذلك إقرار منا ومن جميع الخلائق بعبوديتنا المطلقة لله تعالى وربوبيته وألوهيته المطلقة الكاملة والوحيدة علينا وعلى جميع الخلائق في العالمين".⁽²¹⁾

يتفق الشيخ بن الشيخ في هذا الأمر مع غيره من علماء الإسلام الذين يرون في أصل التوحيد والإيمان برسالة محمد ﷺ هي المرتكز الأعظم لجمع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف مذاهبهم وتعدد مشاربهم. مع ما سيكون بينهم من خلافات فرعية معتبرة ومحمودة ومشروعة تكون دون الأصول الكبرى المجمع عليها عقيدة وشريعة وأخلاقا.

تم يتساءل الشيخ بن الشيخ تساءلا استعجابيا: "يفترض أن يكون اجتماع الأمة على مبدأ التوحيد والعبودية وهي العقيدة الراسخة في قلوب المسلمين قدرا كافيا لجمع كلمة المسلمين على صعيد واحد".⁽²²⁾

يقول الشيخ بن الشيخ في هذا الصدد: من المفروض المقرر عندنا في كتاب ربنا أن تكون هذه العقيدة الأصلية المكينة في القلب قدرا كافيا وعاملا مشتركا يجمع كلمة المسلمين وغير المسلمين ممن يدينون بمبدأ الإيمان بربوبية الله عز وجل للكون كله.

(21): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكمليات الوفاق، ص 24، 25.

(22): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكمليات الوفاق، ص 24، 26.

وكان الشيخ بن الشيخ هنا يوسع من دائرة اجتماع الأمة على مبدأ التوحيد ليشمل من يدين به حتى من غير دائرة المسلمين من بعض أهل الكتاب الذي حافظوا على صفاء عقائدهم من الشرك ولازموا أصل التوحيد الذي دعا إلى أنبيائهم، وذلك فيما يجمع كلمة الإنسانية في الخير والصالح العام للبشر. مصداقا لقوله تعالى: "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ" سورة آل عمران، الآية 64.

يضيف الشيخ بن الشيخ إلى الاجتماع والوحدة على أساس أصل التوحيد الإيمان بالأنبياء والكتب المنزل والإيمان بالمصير واليوم الآخر والوعد والوعيد والجنة والنار والثواب والعقاب باعتبارها أصولا عقدية عظيمة أجمعت عليها أمة الإسلام وكل الشرائع السماوية.

يوصل الشيخ بن الشيخ عرض نظريته لوحدة المسلمين بطرح تساؤل استفهامي آخر يقول فيه: "ما بال البعض يطرح اليوم جدلية أو إشكالية التوافق أو التخالف بين المذاهب الإسلامية على جهة التشكيك والتفرقة بين المسلمين وتوهين الصلة والتواصل بينهم؟" (23)

يعود السبب في رأيه لتداول هذا التشكيك في وحدة المسلمين بين أبناء الأمة إلى وجود مسائل فرعية عقائدية، ومسائل أخرى فقهية تشريعية، وأخرى حول السياسة والحكم حولها خلاف وعدم اتفاق؛ فتكابر وتعاضم هذا الخلاف حتى صنع نوعا من القطيعة والجفاء بين مذاهب الأمة وفرقها وطوائفها المختلفة.

يجيب الشيخ بن الشيخ عن هذا الإشكال في رأيه بأن الإيمان الصادق بحقيقة اجتماع كلمة المسلمين تحت مظلة التوحيد وعبودية الله تعالى، وعلى تلك الأصول الكبرى التي عرضها سابقا يجب أن ينجر عنه تهوين كل الاختلافات الفرعية الموجودة بين علماء الأمة وبين مذاهبها على مستوى الفروع العقدية والفقهية والسياسية.

ويتم ذلك عمليا بالوعي والفهم بأهمية اجتماع كلمة الأمة على كبريات مبادئها وأهدافها ومقاصدها، وإدراك أهمية وحدة صفها وجمع بيضتها، ثم بمعرفة الأسباب العلمية والعوامل الموضوعية لتلك الاختلافات الفرعية والآراء المتعددة الجزئية، ثم إيجاد الأعداء الشرعية المتبادلة لأصحابها من مختلف المذاهب الإسلامية.

(23): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق، ص 26

نجد الشيخ بن الشيخ برأيه هذا يتوافق مع آراء ومواقف كبار علماء الإسلام المحققين الذين اجتهدوا في جمع كلمة الأمة على أصولها الكبرى ومقاصدها العظمى، وترفعوا عن الخوض في اختلافاتها الفرعية حفاظا على المكاسب الكبرى للوحدة ودرءا للمفاسد الكبرى للتفرقة والنزاع.⁽²⁴⁾

الجامع الثاني: القرآن الكريم الأصل الثاني لوحدة الأمة:

يرى الشيخ بن الشيخ أن القرآن الكريم باعتباره كلام الله عز وجل وكتابه الخالد إلى البشرية جمعاء، وخاتم الرسائل السماوية إلى الأرض هو الأصل الثاني الذي ينبغي على الأمة أن تبني عليه وحدتها وتعلي بنيانها وتقيم حضارتها، وذلك بعد الأصل الأول المتمثل في عقيدة التوحيد بأركانها المعروفة.

لأن القرآن الكريم هو الذي اجتمعت عليه الأمة وأطبقت وتواتر وصوله إلينا بدون أي خلاف معتبر أو نزاع فيه أو حوله، ولأنه يحتوي أصول الشريعة في أبعادها الإيمانية العقدية والتشريعية العملية، والأخلاقية السلوكية.

يقول الشيخ بن الشيخ في هذا الشأن: "الإيمان بالقرآن إيمانا يهدي للتي هي أقوم، مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيما عليه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قد تكفل الله تعالى بحفظه منذ أنزله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... وكل ذلك مصرح به ومنصوص عليه بنصوص قطعية المتن والدلالة في آيات محكمات."⁽²⁵⁾

لا يفهم من كلام الشيخ بن الشيخ هنا أنه استنقص من مكانة السنة أو همشها باعتبارها أصلا ركينا في فهم الدين وتفسير كلام الله وبيان أحكامه وشرح معانيه، وباعتبارها المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، لأنه سيفرد في مباحث قادمة من كتابه كلاما مفصلا عن مكانة السنة في فهم حقيقة هذا الدين واستنباط أحكامه، مما يؤكد أن الشيخ مدركا كامل الإدراك أن طريق فهم كتاب الله يمر عن طريق فهم السنة، وأن الإسلام يقف منتصبا على قاعدتين صلبتين هما كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ⁽²⁶⁾

(24):يراجع في ذلك: أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث.. عبد الكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة.

(25): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق، ص 27

(26): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق، ص 78-82

الجامع الثالث: الإيمان بالكعبة باعتبارها قبلة موحدة للمسلمين

يرى الشيخ بن الشيخ اتجاه المسلمين في صلاتهم إلى الكعبة وإيمانهم بقبلة واحدة موحدة لهم تحمل دلالات عظيمة على وحدتهم، ومعان عميقة على جمع كلمتهم.

من ذلك أنها تعني ارتباطهم بمهبط وحى نبيهم محمد ﷺ، كما تعني تواصل رسالتهم مع الرسائل السماوية السابقة، وعلى رأسها رسالة الخليل إبراهيم وإبنه إسماعيل عليهما السلام، كما تعني إرثهم وختمهم لكل هذه الرسائل السماوية السابقة، كما تعني اجتماع كلمتهم على أطهر بقاع الأرض لما تحمله من نفحات النبوة، واعتراف الإنسان بتعلقه بوحى السماء. وما فيها من مسؤوليات التكليف والعمارة والاستخلاف والعبودية، وما فيها بعد ذلك من حياة آخرة خالدة قائمة على العدل المطلقة في الثواب والعقاب والمصير.

يقول الشيخ بن الشيخ في هذا الصدد: "كما يجمع المسلمين أهل الإيمان بالكعبة أول بيت وضع للناس بمكة "مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا" سورة آل عمران، الآية: 96 - 97. وقد غدا قبلة واحدة وموحدة للناس جميعا في صلاتهم، وماؤي أفئدتهم في حجهم." (27)

ثم يتساءل الشيخ بن الشيخ كيف للمسلمين وهم يجتمعون على هذه الأصول العظيمة كالجبال الرواسي أن يشككوا في حقيقة وحدة أمتهم أو يعملوا على تفرقتها بدعاوي مختلفة؛ منها بعض تلك الاختلافات الفرعية المذهبية في العقائد أو الأحكام أو السياسة؟

يقول الشيخ بن الشيخ في هذا الصدد: "أبعد كل هذه الأصول الجامعة الثابتة بين جميع طوائف وفئات ومذاهب الأمة الإسلامية طرح جدلية أو إشكالية وحدة المذاهب الإسلامية، أو اختلافها وافتراقها؟ إن هذا أمر عجيب في غمط التاريخ ومغالطة المسلمين وتضليل أبناء الإسلام عن أصلاتهم وملتهم التي أمروا أن لا يموتوا إلا عليها" (28)

ثم يختم الشيخ بن الشيخ هذا الشق من نظريته في وحدة الأمة بتسمية هذا الركن بجامع أصول الدين وكرليات الاعتقاد.

(27): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكرليات الوفاق، ص 28

(28): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكرليات الوفاق، ص 28-29

الجامع الرابع: سماحة الإسلام وعدالته ووسطيته وشموليته:

يرى الشيخ بن الشيخ أن الناظر في التاريخ الإسلامي والمتأمل في تراثه الفكري؛ بخاصة الفقهي منه يلحظ ذلك اليسر والتسامح ويقف على تلك السماحة التي كان عليها علماء الإسلام في العصور الذهبية للأمة، ويرى أنهم قد استمدوا ذلك من فهمهم العميق لروح الشريعة، ثم عملوا على تجسيد ذلك واقعيًا في حياتهم ومعاملاتهم وسبل عيشهم. فحققوا وحدة الصف مع وجود الاختلافات الفقهية في الأصول العملية الفرعية.

ولم يقف ذلك أبداً عائقاً أمامهم لجمع كلمة شعوبهم وأوطانهم، وقد برز ذلك في علاقات العلماء فيما بينهم، وتزاورهم، وأخذهم العلم من حلق بعضهم البعض على الرغم من اختلاف مذاهبهم ومشاربهم الفكرية، وانتقالهم بين الحواضر العلمية أسفاراً ورحلات ومكوثاً للتعلم والتحصيل العلمي، ورواية بعضهم عن بعض في رسائلهم ونقل آراءهم واجتهاداتهم المختلفة في كتبهم ومصنفاتهم ومذكراتهم.

يقول : الشيخ بن الشيخ في هذا الشأن: "فلو أنصفنا أنفسنا ... وأنصفنا التاريخ بواقعه لوجدنا التراث الفكري في الفقه الإسلامي في مجال الفروع العلمية التطبيقية؛ خاصة في عصر ما سمي في اصطلاح تاريخ التشريع بعصر التأصيل والتأسيس للمذاهب، من تزاور أئمة المذاهب فيما بينهم، ورواية العلم بعضهم عن بعض، وتكامل بعضهم ببعض، وتسامح بعضهم مع البعض، واعتراف بعضهم للبعض. وكذلك الأمر في عصر الاستبحار والتفريع إذن لرأينا في ذلك تكريماً من الله لهذه الأمة في علمائها وفطرتهم. وتعظيماً لهذه الملة في شمولها وسماحتها".⁽²⁹⁾

ويرى الشيخ بن الشيخ في نظريته للوحدة أن هذا الأمر الذي امتازت به الأمة وجسده علماءها فيما بينهم يعد كرامة إلهية لهذه الأمة ورفعاً لشأنها. ومن هذه الكرامة والعزة أن أقر الله تعالى حق الاختلاف فيها، واعتبرها سنة من سننه في البشرية، بل فطرة فطر الله تعالى عليها الإنسان، ولا يستطيع بأي حال من الأحوال الارتفاع عنها.

ثم من تمام تكريم الله لعلماء الأمة أن جعل لهم الأجر والثواب على أصل الاجتهاد، سواء أصابوا أم أخطأوا. فأعطى للمصيب أجرين وللمخطئ أجراً واحداً مقابل ما بذله من جهد الاجتهاد.

(29): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق، ص30

يقول الشيخ بن الشيخ في هذا الشأن: "فقد كرم الله هذه الأمة في علمائها، ففضل عليهم بقبول الخلاف في المسائل الفرعية، وأجرهم على قدر اجتهادهم فيها رغم اختلاف نتائجهم التي توصلوا . أو يتوصلون . إليها ... أو على أن بعض نتائج الاجتهاد حق وصواب مأجور عليه صاحبه أجرين، أجر الاجتهاد وأجر إصابة الحق، وبعضها الآخر خطأ ولكنه معفو عن صاحبه إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ومأجور عليه صاحبه أجراً واحداً أجر الاجتهاد وإن لم يصب الحق فلا يؤخذ على ذلك"⁽³⁰⁾

ثم يرى الشيخ بن الشيخ أن تعظيم الله لشأن هذه الأمة عندما جعل شريعتها سمحاء وسطية وشاملة صالحة لكل زمان ومكان وفيها من اليسر والمرونة والقابلية للتجدد في الزمان والمكان وتغير الأحوال بحسب النوازل والأوضاع المستجدة في حياة الناس مع المحافظة والثبات على الأصول والمبادئ في مجال العقائد والشرائع والأخلاق.

يقول في هذا الصدد: "أما تعظيم هذه الملة . ملة الإسلام . فمن حيث سماحتها وشموليتها وصلوحيتها لكل زمان ومكان بما يناسبه، وذلك سر عظمة هذه الشريعة، في يسرها ومرونتها وقابلية النصوص القطعية المتن الظنية الدلالة في كثير من مواردنا أن تفهم وتفسر وتتوّل بحسب كل زمان وكل مكان، بل وبحسب كل شخص أحياناً بما يناسبه مع المحافظة على الثوابت والأصول القطعية في العقائد والعبادات والمعاملات على اختلاف مجالاتها."⁽³¹⁾

ثم يقرر الشيخ بن الشيخ النتيجة الحتمية التي ينبغي أن يخلص إليه حال الأمة التي تؤمن حق الإيمان بالمبادئ الماضية وتطبقها وتعيش بها على أرض الواقع فإن كلمتها ستجتمع لا محالة وأنه لا يبقى خلاف معتبر بين مذاهبها مما من شأنه أن يؤدي إلى الفرقة أو التنازع أو التباغض أو التدابر أو التقاتل. فهو لا يعدو أن يكون خلاف تنوع حرصاً على جلب المصالح أو خلاف تنوع حرصاً على درء المفاسد.

هذا هو مجمل ما احتوت عليه نظرية الشيخ بن الشيخ في وحدة الأمة.

(30): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق، ص 31

(31): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق، ص 31

7. الحالة الجزائرية لوحدة الأمة والمرجعية الدينية:

بناء على التحليل العميق والعرض الرصين لجوامع وحدة الأمة التي عرضها الشيخ بن الشيخ في المبحث الأول لكتابه وأبان فيه عن عمق تصوره ورشد أفكاره لوحدة الأمة وجوامع الأصول التي تعد ركائز وأسس تحقيق هذه الوحدة، انتقل إلى الحالة الجزائرية ووضع مقارنته لبناء هذه الوحدة داخل البلد الواحد وتجميع صفوفه وراء مرجعيته الدينية.

ينطلق الشيخ بن الشيخ في طرح تصوره من العودة إلى التاريخ والاستناد إليه حيث يرى أن الجزائر عرفت عبر تاريخها الإسلامي الطويل الممتد لأربعة عشر قرن ظهور واستقرار ثلاث مذاهب رئيسة فيه هي المذهب الإباضي ثم المذهب المالكي ثم المذهب الحنفي خلال حقبة العهد العثماني.

يقول في هذا الصدد: "أما بالنسبة لنا معشر الجزائريين إباضيين ومالكيين وأحنافا فالتوافق بين جميع المنتمين لهذه المذاهب أظهر وأقوى وأمتن؛ إذا ما استقرأنا التاريخ قبل أن نستقرئ المسائل والأحكام الجزئية، فضلا عن الأصول والأحكام الكلية."⁽³²⁾

وأن هذه المذاهب قد استطاعت أن تحقق فيما بينها المرجعية الدينية الجزائرية من خلال استقرارها الطويل على أرض الوطن وتعايشها فيما بينها في جوانب الحياة المختلفة وتمازج اجتماعاتها مع أعراف البلد وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

يقول في هذا الشأن: "فالتعايش مدى التاريخ الطويل والأمد البعيد طيلة ما يزيد على ألف سنة أو تزيد عدد مئتين بين المذاهب الثلاثة. خاصة بين الإباضية والمالكية في شمال أفريقيا"⁽³³⁾

إن أتباع هذه المذاهب حققوا كل صور التعايش النبيلة والحميدة من التزاوج والتصاهر فيما بينهم، ومن الاشتراك في كل أنواع المهن والحرف والأعمال من تجارة وصناعة وفلاحة وصناعة وخدمات، مع التجاور في السكن في مختلف المدن والقرى والأرياف.

(32): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكميات الوفاق، ص34

(33): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكميات الوفاق، ص34

يقول الشيخ في هذا الأمر: "من هذا المنطلق أو من هذا المنظور ندرك مدى التقارب . بل مدى التوافق . بين المذاهب المتعايشة في هذه الأقطار المتجاورة من المغرب العربي، وخاصة الجزائر الحبيبة منذ ما يزيد على ألف سنة مما يعدون، وكم شهدت هذه الحقبة التاريخية الطويلة من تآزر وتعاون وتآخ بين الإباضيين والمالكيين خاصة في جنوب الجزائر . وادي مزاب . إذ تجاوزوا وما زالوا متجاورين في البيوت، وتشاركوا في شركات للزرع والحرث والمساقاة والمغارسة وتربية المواشي والأنعام في البوادي والحضر، وتاجروا في مختلف ميادين التشغيل الفلاحي والصناعي والتجاري وورشات الأشغال ومقاولات البناء وما أكثرها حتى اليوم."⁽³⁴⁾

يرى الشيخ بن الشيخ أن هذا التعايش على مختلف المستويات هو أكبر دليل على تقارب وتوافق هذه المذاهب وإلا لما حصل وتحقق هذا التعايش طوال هذه الفترة الزمنية التي استغرقت قرونا ولا تزال بحمد الله وفضل.⁽³⁵⁾

يقول في هذا الشأن: "كل هذا التعايش والتجاور في البيئات يدل على مدى التقارب والتكامل إلى حد ما يقرب من التوافق والتوحد في معظم ما يحكم علاقة المسلم بربه أولا، ثم ما ينظم علاقته بمن يعايشه ويساكنه ويجاوره السراء من قريب أو بعيد، ويشاطره الضراء."⁽³⁶⁾

كما يشير إلى أن التاريخ الجزائري شهد ظهور مذاهب أخرى مثل المذهب الشيعي في عهد الدولة العبيدية الفاطمية لكن لم يكتب لها البقاء ولا الاستمرار ولا التعايش بسبب عدم التقارب والتوافق في المسائل الدينية بل شهد نزاعات وصراعات انتهت بزوال الدولة وزوال مذهبيها من الجزائر.⁽³⁷⁾

(34): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكميات الوفاق، ص36

(35): يراجع في ذلك: قاسم الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند إباضية الجزائر. ص462 - 477. يوسف الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب،

(36): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكميات الوفاق، ص36

(37): يراجع في ذلك: عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام. و إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية.

كما نبه الشيخ بن الشيخ في بيان متانة المرجعية الدينية الجزائرية إلى مشاركة كل أطراف الشعب الجزائري في مقاومة الاستعمار الفرنسي الغاشم، ثم المشاركة في الثورة التحريرية التي وهبت الجزائر استقلالها المجيد وميلادها الجديد، وكان منطلقها عقديا دينيا جهاديا نابعا من عمق تشبع الشعب الجزائري بقيم إسلامه.

كما أشار الشيخ إلى تلك اللحمة التي جمعت علماء الجزائر مالكيين وإباضيين، إصلاحيين وأصحاب طرق وزوايا تحت سقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فكانت تجسيدا عمليا لوحدة الصف وجمع الكلمة وتحقيقا لمعاني المرجعية الدينية الجزائرية⁽³⁸⁾.

تلك صورة متكاملة لمفهوم المرجعية الدينية الجزائرية على مستواها العلمي والواقعي كما تجسدت على أرض الجزائر الحبيبة.

بناء على هذا الطرح العميق وهذا الاستيعاب للأفق الوطني الشامل للتعبير عن وحدة الأمة والوطن ووحدة مرجعيتها الدينية نقول إن الشيخ بن الشيخ يرى أن:

المرجعية الدينية الجزائرية: تتمثل في اجتماع مذاهبها الثلاثة: مالكية وإباضية وأحنافا وتمثيلهم للمرجعية الدينية الجزائرية باتفاقهم على الجوامع الكبرى لهذا الدين في بعده العقائدي والشراعي والأخلاقي، وعلى اجتماعهم على مشروع مجتمع الشعب الجزائري المستمد من تاريخه الطويل، وأعرافه وتقاليده الأصيلة، في بعده الأمازيغي والعربي، والقائم على قيم الحرية والعدالة والمساواة كما يعرفها الدين الإسلامي الحنيف.

مع الاعتراف بمختلف الاختلافات الفرعية المذهبية، والخصوصيات الثقافية والمجتمعية الصادرة من اجتهادات العلماء المعتبرين المؤهلين الثقافات، والتي تعد ثراء وتنوعا وإضافة نافعة، بل أمرا مطلوبا ومرجوا، وهي وجه من وجوه سماحة الإسلام وعدالته، وهي لا تفسد في الود قضية بين علماء الجزائر، وبين أبناء شعبها الأبي.

يقول الشيخ بن الشيخ في هذا المعنى: "إذ لا يعدو أن يكون خلاف تنوع وتعدد المصالح والمنافع حرصا على جلبها وتحقيقها، أو تنوع وتعدد الشرور والمفاسد والمضار حرصا على

درئها ودفعتها وتلافيا تطهيرا للمجتمع الإسلامي منها، وتزكية لنفس المؤمن حتى تطمئن وتلقى ربها راضية مرضية فيدخلها في عباده ويدخلها جنته." (39)

تجسيدا لطرحه وتطبيقا لأفكاره وتنفيذا لتصوراته حول حقيقة الخلاف العلمي المعتبر فإن الشيخ بن الشيخ خصص ثلثي كتابه لعرض أهم المسائل الخلافية الاجتهادية بين المذهبين المالكي والإباضي في مختلف قضايا العلوم الشرعية في فروع علم العقيدة والفقه والسياسة الشرعية والأحكام القضائية والعبادات والمعاملات. ملتزما في ذلك بأدب العلماء في عرض الآراء ومناقشتها وبسط المسائل وبيانها وترجيح ما يراه راجحا منها واختيار أقواله فيها.

هذا هو تصور الشيخ بن الشيخ للمرجعية الدينية الجزائرية.

خاتمة :

بعد هذا العرض لمباحث وعناصر هذه المداخلة المستمدة من كتاب أصول الجمع وكليات الوفاق بين المذهبين الإباضي والمالكي لشيخنا المرحوم الشيخ بن الشيخ، وبعد هذه الجولة المستفيضة والمتأنية في ثنايا كتابه فإنه يمكن لنا أن نخلص إلى جملة من نتائج نختم بها هذا البحث متمثلة فيما يلي:

1 . يعد الشيخ بن الشيخ قامة علمية جزائرية موسوعية معاصرة بامتياز بما حمله من مواصفات وخصال العلماء، وبما قام به وقدمه من جهود علمية ودعوية جبارة استمرت لأزيد من نصف قرن من الزمن في سبيل خدمة أمته ووطنه ومجتمعه. مما يوجب على الجزائر. ردا للجميل . أن تنزله منزلة اللائقة به بين مصاف علمائها وأعلامها.

2 . يعد كتاب أصول الجمع وكليات الوفاق دراسة جادة وإضافة علمية متميزة، يمكن تصنيفها ضمن الدراسات الإسلامية المعاصرة في الفكر الإسلامي، التي اعتنت بمعالجة مفاهيم وحدة الأمة وطرح انشغالاتها المعاصرة.

(39): محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق، ص 34

3. كما يمكن أن يصنف هذا الكتاب أيضا ضمن دراسات الفقه الإسلامي المعاصر والمقارن، لما احتوى عليه من دراسة مسائل فقهية كثيرة بمنهج الفقه المقارن. بخاصة بين المذهب المالكي والمذهب الإباضي.

4. عالج الشيخ بن الشيخ في كتابه أصول الجمع وكليات الوفاق باقتدار وتمكن مفهوم المرجعية الدينية الجزائرية، فركز على استنادها إلى جوامع الدين الإسلامي عقيدة وشريعة وأخلاقا، وعلى اعتمادها على مصادر التشريع قرآنا وسنة، وعلى استنادها على وحدة الأمة الشاملة مع تعدد اجتهاداتها ومشاربها ومذاهبها المتمثلة في المذهب المالكي والمذهب الإباضي والمذهب الحنفي. وعلى تجسيد ذلك في حياة الناس ومعيشتهم اليومية قيما للتعايش والمواطنة، وتبادلا للمصالح والمنافع والأعمال، وحفظا للوطن ودرا لكل المفاسد والمخاطر عنه.

5. يعد كتاب أصول الجمع وكليات الوفاق مدخلا هاما لمعرفة ودراسة آراء الشيخ بن الشيخ الاجتهادية في مسائل العقيدة والفقه والأصول والسياسة الشرعية.

6. كشف كتاب أصول الجمع وكليات الوفاق على نظرية متكاملة الأركان للشيخ بن الشيخ حول وحدة الأمة وجوامع وأصول ومرتكزات تحقيقها.

7. عالج الشيخ بن الشيخ في كتابه وضمن نظريته إشكالية الاختلافات العقدية والفقهية بين الأمة وسبل تقبلها والتعامل معها وجمع الكلمة ووحدة الصف على الرغم من وجود هذه الاختلافات، التي لا تزال معوقا رئيسا وسببا قويا في افتراق الأمة.

8. يمكن اقتراح موضوع بحث أكاديمي يكون منطلقه من هذا الكتاب بعنوان: الآراء الاجتهادية للشيخ بالشيخ في مسائل الأصول والفروع.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية، ط1، مطبعة لافوميك، الجزائر، 1985 م.
2. أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغبة، الجزائر، 1990 م.
3. أحمد جابالله: المرجعية الدينية الإسلامية، المحددات، عوامل التشكل، الإشكاليات، موقع مركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق، 2020 م.
4. إدريس بن مصطفى: المرجعية الدينية في الجزائر: الأسس والمرتكزات: مقال منشور ضمن مجلة متون للدراسات، جامعة مولاي الطاهر سعيدة، مج14، عدد1، 2021/02/26.
5. عبد الإله بلقزيز: مقال بعنوان: في مفهوم الأمن الثقافي، منشور ضمن موقع: مركز الخليج للدراسات، سنة 2021.
6. عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ط4، دار الثقافة، بيروت، 1400 هـ \ 1980 م.
7. عبد الكريم بكار: من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار القلم، دمشق، سورية، 2005، ص113-134.
8. عبد الكريم بكار: نحو فهم أعمق للعالم الإسلامي، دار القلم، دمشق، سورية، 2005.
9. غازي التوبة: الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة وتقويم، دار القلم، بيروت، لبنان، 1977 م.
10. قاسم الشيخ بالحاج: الأمن الثقافي للأوطان والتحديات، المعاصرة، دار أمل للنشر، تيزي وزو، الجزائر، 2021، ص11-23.
11. قاسم الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند إباحية الجزائر، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر. ص462 – 477.
12. قاسم الشيخ بلحاج: نظرية الحضارة عند المفكر مالك بن نبي، الجاحظية، الجزائر، 1998، ص39.
13. مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2005 م، ص75-105.
14. مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2005 م، ص71-75.
15. محمد ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، دت.
16. محمد الشيخ بالحاج: أصول الجمع وكليات الوفاق بين المذهبين الإباضي والمالكي، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية، الجزائر، طبعة ثانية، 1437 هـ / 2016 م.
17. محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، ط2، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1411 هـ \ 1991 م.
18. يوسف الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، المطبعة العربية، غرداية، 1992 م.